

صُورٌ من الجزيرة

- المغتربات
- جارة النبي
- هاجر
- آمنة

obeikandi.com

المغربيات

« . . . ليتنا نقدر أن الغرب ، الظافر الغالب ،
يدين لهؤلاء المغربيات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ
سياسي واقتصادي ، في أرضنا الطيبة التي
اغتُصبت زماناً ، وشرقنا الذي غلب طويلاً
واستُبح ! » . . .

لقيتُهن هناك في صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة في أوطانهم ،
وتبعن أزواجهن إلى ذلك المكان الثأى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء العش وأنس
الأسرة ، ما يعينهم على العمل الكادح والكفاح الصعب ، بين الصخور والرمال . . .
لقيتُهن هناك في الدهناء : أمريكيات وأوريبات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد
رضين بالعيش في تلك الفلاة المهجورة لمسحن بأناملهن الرقيقة العرق المتصبب من جباه
رجالهن العاملين في وقدة الرمضاء . . .

ورأيتُهن هناك : ابتساماً وضيئة في وجه الصحراء الغضوب ، وأطيفاً رشيقاً أنيقة
وسط المهمة القفر ، ونغمة عذبة تروّج عن الرجال الذين يعملون بين ضجيج الآلات
الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة على حافة
العرمان . . .

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للمغربيين مساكن
طيبة ، حولها حدائق مزهرة غناء ، تصد عنها بعض لفتح المهجير وعواصف الرمال ولطبات
الرياح السافيات !

ولم يشق على شركة الزيت أن تضيء منازل رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ،
وتزودها « بالتليفون والراديو والفرجيدير » ، لكنها لم تكن لتستطيع - ولو ظفرت بمال
قارون وعثرت على كنوز سليمان - أن تدود عن الرجال الضجر والملال والوحشة ، وأن
تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التي تتركها الأنثى حينما مست يداها ! أوتبت في
المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحاً من الأنس واللطف

والرقة والحنان ، كذلك التي تلقىها الزوجات والأمهات ! !
 هن اللواتي يجعلن المنازل بيوتاً وسكناً ويبعثن الحياة في ذلك الخراب الياب ، وينبتن
 في الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات إنسانية يانعة ، تعطر الجو الصحراوي بأريج الطفولة
 الباسمة المتفتحة للحياة !
 ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب في منطقة الزيت بالصحراء ،
 واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمرءوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب .

° ° °

ومضيت أتمس مصرياً واحداً بين الرجال العاملين في شركة الزيت ، فلم أجد !
 وقيل لي فيما قيل : إن الجزيرة ألحت في طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ،
 فلم يستجب لها أحد كما استجاب آخرون : من الهند وإندونيسيا وإيران ، وسورية ولبنان
 وفلسطين ، وأوروبا وأمريكا .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب حار
 لا يظفر به أجنبي ، وتزلمهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربيين الغرباء ؟
 لسبب بسيط ، هو أن المصريين يأتين الهجرة ولو إلى قطر شقيق ، ويرفضن أن يتبعن
 أزواجهن ولو إلى بلاد العرب ، مها تكن المغريات (١) !
 وكنّ أولى بأن يفعلن ، لأن حياتهن هناك لا يرهقها شعور بالغرابة ، في بلاد نتكلم
 بلغتها ، وندين لها بالإسلام !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غريبات أعجميات لا يعرفن حرفاً من العربية ،
 ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن - إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس
 ودخول القسس والرهبان - في الوقت الذي تأتى فيه تلك الحياة ، مصرات يتزلن هناك
 بين أهلي وجيران ، وإخوان في الدين واللغة والقومية ؟
 أليس من العجيب أن ترضى بالعيش في الظهران ، غريبة عصرية ، قد تكون ولدت
 في نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة في قلعة الكيش ،
 أو صفت تراب ، أو زاوية الناعورة ، أو دشنا وفرشوط ؟

(١) كتبت هذا ، سنة ١٩٥٢ ، قبل أن تلوح على أفقنا بوادر السعي إلى العمل في الأقطار العربية الشقيقة ، إغارة

كلا ، ليس في الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وأى هكذا خُلِقْنَ ، والأمر لله !

إن المصرية تأتي أن تترج من القاهرة إلى الجيزة ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ، ويندر أن ترى قاهرة ترضى بالزواج من رجل يعيش في الريف ، ولو كان من ملاك الأراضي وكبار الموظفين .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون في الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ، يحتلمن العيش بعيداً عن أضواء العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشتت لآتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدق ، عن طالبي النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيتنا من تتبع زوجها إلى الصحراء في جزيرة العرب ؟ !
إني لأذكر زوجات بعض الموظفين في إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة ، في منطقة أشبه بالجنة ، قد رفضن أن يعشن هناك في (الفيلات) الأنيقة المضاءة بالكهرباء ، والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . .
وفي مجاهل إفريقية وآسيوية ، تعيش غريبات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن في الحياة ، ويقدرن واجبهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، الظافر القاهر ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسي واقتصادي ، في أرضنا الطيبة التي اغتصبت زماناً ، وشرقنا الذي غلب طويلاً واستُبيح ! . .

obeikandi.com

جارة النبي . . .

« قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

سعيانا إلى الحرم النبوي في جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذي ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الدُّنَى ، وتُرَجَّعه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والصفوح والأودية في رنين علوى النغم ساحر الأصداء ، فإذا الكون كله تسيحة مؤمنة وترنيمه هائمة !
وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشَعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفأ الحس وشفَّ الشعور ورقَّ القلب ، واندمجت شخوصنا المتعبدة في ركب الأرواح المطفية بحرم النبي ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين على رزقهم يبتغون من فضل الله ، وبقيت قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا ، وآثروا على كل متاع فيها ، جوار الرسول الحبيب . وآخرون أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا ببنبيهم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر في المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً في الحرم أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذي وعيتُ من مشاهد التاريخ الإسلامي منذ عام الهجرة ، إلى أن لبي المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر في هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدساً للمسلمين من شتى أقطار الأرض .

ومرّني في مجلسي عددٌ من النسوة يظفن بالمقصورة الكريمة ، فلم ألق إليهن بالآ . حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غير بعيد مني شاكيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعي عن أصواتهن ودعواتهن كما أفرغ لتأملاتي . لكنني ما لبثت أن سمعت صوت نشيج محتق ، رجّعته جوانب الحرم فكان له صدى لآفت ، وجمنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدرت رأسي أتمس الباكية ، فألفيتها إلى جانبي : امرأة نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض في ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تحتق أنفاسها المتلاحقة . .
وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدي إلى جانبها أرنو إليها في رثاء وعطف ، حتى رفعت نحوي وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهفت بي فجأة :

- ادعي لي !

قلت في حرارة وتأثر :

- الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لي حينذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :
- غريبة أنتِ عن الديار؟

أجابت وهي تشهق :

- وى ! غفر الله لي ، أتكون غريبة مع جوار النبي ؟ ولكن لي في بلاد بعيدة فلذة كبد غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبي ، فأفزع إلى ربي لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين ياستي كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

- أرجو ، فما الذي تبغين ؟

أجابت في لطفة :

- تقرئين لي قصة نار إبراهيم ، فإني أشعر كلما سمعتها براحة . .

فأدركت ماتعني ، وتلوت عليها آيات إبراهيم من سورة الأنبياء :

« والله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جُذاداً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يُقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرهم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأхسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . »

صدق الله العظيم

هنالك انبسطت أساريها ، وبان عليها الارتياح ، لكنها عادت فتجهمت وهمست
تسألني في خوف وشك :

- وهل ترين أني أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟ فأبيتُ عليها أن تبئس من
رُوح الله ، ثم همت بالقيام معتذرة بأني من قومي على موعد ، كى نسعى إلى « أحد » ثم
إلى « قباء »^(١) قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .
فتوسلتُ إليّ أن أبقى هنية ، ربمّا نقص قصتها عليّ :

° ° °

نشأتُ في بلاد المغرب الأوسط ، بدويةً حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهي
صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تفتتح للربيع ناضجة الجسم
رطبة العود ، حتى ركبهم الهمُّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ،
ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشارتها ، ويتبعون
مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصفون إلى ما قد يندُّ عنها من هذر الأحلام في غفوة
التعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحمواها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيئتهم وهم بدو من فقراء
الرعاة . وهكذا استقبلت ربيع العمر في ظلّ رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة
أوضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى في شرائع
البداءة الحفاة !

ولم تكن تدري كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظلمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن
يُرضيهم منها أيُّ حال :

إن وجمتُ ، قيل محزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمتُ قيل عاشقة لقيتُ الحبيب !
إن مرضتُ قيل مجفوة أضناها الهجر ، وإن صحَّتُ قيل راضية صفا لها الحب !
إن نامتُ قيل حاملة تهفو إلى لقاء طيف المحبوب ، وإن سهرتُ قيل مسهدة جفاها

الرقاد !

إن نجمتُ قيل فاجرة تنهياً للقاء ، وإن أهملتُ زينتها قيل ضالة رحل عنها من

تهواه ! !

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبي « المدينة » على يسار القاصد إلى مكة . نزل بها الرسول ﷺ في هجرته
التاريخية ، وبنى بها أول مسجد في الإسلام .

وأنتكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بنجبال ، فدعوا لها ضاربي الرمل
وقارنى الكف ، كى ينزعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه . وما كان سرها
سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وازدهر . .
وحين أعيابهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا
الدفوف كى يبرئوها من مس الجان ، وما كان الذى بها سوى اللمة الساحرة من فورة
الربيع وحيوته الدافقة . .

• • •

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .
أو هكذا ظنت وظنوا . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا
فئاتهم من محنة التردد ، وطاب لهم ولها أن يثدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيت ولقوا ،
وأن يلقوا عليه ركماً من ثلوج الشتاء ، تُخمد جذوته المتقدة وتذهب بعبيره الفياح !
لكنها راحة لم تطل . . .

فاكادت تضع وليداً جميلاً فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من
جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنا كرهت أن تذهب هذه
الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم المالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم
العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرحتها إلى
قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت
كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر
الحى مكاناً قصياً وانطوت على أحزانها تجترها فى شجن صامت . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة ، وافد غريب جاء من ديار بعيدة يسعى فى طريقه إلى
الحجاز ، وقد كَلَّت قدماه من طول السرى فتزل بالقوم يلتمس القرى ريثما يريح بدنه
المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث
ليال لم يكف خلالها عن التفتنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحينئذ إلى الروضة الشريفة . .
هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبى الحبيب عليه الصلاة
والسلام .

وأخذتها عيناه في كل ليلة ، وهي تصغى إليه من ركنها المتزوى ، فرق قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحبالها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبث بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا في صحبة رجل من محارمك . فكادت تئس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلب يدها ، وقد راققت في عينيه وطاب له أن يتخذها تهنؤن عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . . ثم انصرف بها بيبغيان مكة المكرمة . ومن ثم إلى المدينة المنورة !

تبعته زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثَّها وحزنها وتنفص في ساحة الحرم هومها وأوجاعها . وقد هون عليها ذلك ، كل ما لقيت من عناء السفر وعتاء الطريق ، وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تتهاوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، فدبت القوة من جديد .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيائها المتداعي إلى الحرم المبارك ، فردت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً . لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام في دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام في إثر عام ، وهي تغدو إلى الحرم النبوي مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعة من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة في « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادل حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام في المدينة المنورة . وكانت تؤول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكي يؤذن لها في المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تظل ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليدعها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها في غربتها ملاذ سواه !

لكنها في أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولاً عما تعانى من جهد الشوق إلى ولدها :
أولم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويعددها السلو والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستمر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار؟ !
 ما بالها لا تكاد عينها تقع على صاحبها حتى يثور بها لاعجُ الحنين إلى ابنها النائي ، فتجد
 لهذا الحنين مثل لفح النار ولذع الجمر؟

وكأنما وجدت أخيراً مَنْ تَحْمَلُ عليه إِصْرَ ما لقيتُ في حياتها الشقية منذ مات أبواها ،
 وَمَنْ تَأْخُذُهُ بذنب الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على
 الشكوى أو الاحتجاج !

واستشعرت لذلك نوعاً من الرضى ، ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها
 الراقدة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد ، وربيعها الموهود ، وأمومتها المحرومة
 المعذبة !

وكان الزوج يلقى ثورتها مستخفاً بها ساخراً بأحزانها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم
 يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها فكانت تهرب من الدار طولَ النهار مستجيرةً بحمي
 الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى
 عدوها ، وتستغرق في صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفى
 برحمته وقدرته ، هذه النار التي ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . .

* * *

وتنفس الصبح وأنا في مجلسي أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست
 عن شجونها ، أطرقت صامته خاشعة ، وبدا لي أنها قد انصرفت عنى تماماً ، فألقيت عليها
 نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وئيداً في ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التي تمرح هناك
 آمنة لا تُراع !

هاجر

« إن الصفاً والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليمٌ . »

صدق الله العظيم

انطلقت بنا السيارة من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا الليل ويلفنا الظلام . وقد أخذتنا شبه غفوة حاملة ونحن نحدق في الجبال الصخرية التي تحف بجانب الطريق في شموخ ، وأشعة الغروب تلقى ظلّة رقيقة من ضوءها الشاحب على القمم الجرداء ، ثم تنساب في رفق على السفوح العارية التي أرهقها قيظ النهار .

وأوشكت السيارة أن تم سبعين كيلومتراً ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم والتلال المترابكة والأودية الضيقة المفروشة بالحصى والرمال . . ثم لاحت لنا « مكة » فجأة من بين الفجاج ، فلم نبالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا في ضراعة وابتهاال :

« لبيك اللهم لبيك . . »

ورددت البطاح أصدااء هتافنا ، فخيّل إلينا أن الوادي قد امتلأ بحشود المسلمين الأولين ، تتدفق من ناحية الشمال لتدخل « مكة » فاتحة ملبية ، وعلى رأسها « القصواء » ناقة الرسول ، تعود إلى البلد الحرام بعد أن تسللت منه خفية إلى دار الهجرة قبل ثمانى سنين ، ناجية بصاحبها ﷺ ، من كيد طواغيت المشركين ومطاردتهم الشرسة . .

وظفنا بالكعبة سبعاً ، ثم خرجنا نسعى بين الصفا والمروة حتى إذا أتممنا المسمى جلستُ على درج المروة ، تجاه الوادي ، وقد طاب لى حينذاك أن اعتزل الصحب زاهدةً فيما شغلوا به من حديث .

ولم أكن حتى تلك اللحظة ، أفكر في شيء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذي صنعه أميُّ يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج من القوافل أجيراً أميناً لبعض أثرياء التجار من قريش . ثم اصطفاه الله رسولاً ، فما مات حتى وطئ بقدميه أصنام الكعبة ،

وشهد بعينه راية الإسلام تحقق على كِلِّ بقعة في أرض العرب ، وسم بأذنيه « بلالاً » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » ، فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف من دخلوا في دين الله أفواجاً . .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التي أتممت فيها المسعى ، أفكر في شيء سوى هذا التاريخ المجيد الذى صنعه أمى يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له شيخ مُسنٌ ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة ، وتلك حصون الطغاة والجبابرة . .

غير أنى لم أكد أجلس على درج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامى داعين مكبرين ، حتى توارت عنى مشاهد ذلك التاريخ الإسلامى ، ولم أعد ألمح سوى طيف « هاجر » وهى تهول فى هذا الوادى باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة طفلها الغالى « إسماعيل » :

خرجت به من خيام أبيه إبراهيم - عليه السلام - طريدة منبوذة ، كلُّ ذنبها أنها رزقت غلاماً ، وسيدتها « سارة » ، امرأة إبراهيم ، عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هى التى سعت إلى إبراهيم أو أغرتة بالزواج منها لتبه ولدأ ، وإنما أذنت السيدة « سارة » بذلك فى لحظة يأس ، ورضيت أن تشاركها جاريتها المصرية فى زوجها . لعل ذلك يروى غلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما أذنت بذلك إلا وهى ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكف الزوج عن ذكر الولد ، ويئد فى أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية . لكن التجربة لم تحقق ، وشاء الله أن تحمل « هاجر » فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وخيل إليها أنها صغرت فى عيني جاريتها ، فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

- ظلمى عليك ! أنا دفعتُ جاريتى إليك فلما حملتُ صغرتُ فى عينها ! يقضى الربُّ بينى وبينك .

قال إبراهيم :

- هى ذى جاريتك فى يدك ، فافعلى بها ما يحسن فى عينيك .
فلم تكذ سارة تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت فى إذلال هاجر إلى أن هربت منها وهامت على وجهها فى البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعتُ فى حجر إبراهيم ولده إسماعيل .

ولم تطق سارة على ذلك صبراً ، فازالت بإبراهيم تحضه وتغريه أن يطرد هذه الجارية وابنتها ، وهو يتردد مشفقاً . ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بهاجرَ منطلقاً من خيامه ، وراح يضرب في الصحراء وهي تسير من ورائه صامته مستسلمة ، متشبثة بوليدها الرضيع ، لا تكاد تفكر في شيء إلا في نجاتها به . . .

وأبعد إبراهيم في السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمة القفر ، فوضع هناك هاجرَ وإسماعيل وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء . ثم اثنى ليعود من حيث جاء . وتلفتت الأم حولها فأفزعتها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجروث على أن تخطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

- أين تمضي وتركنا بهذا الوادي المقفر حيث لا ديار ولا نافع نار؟

فلم يجب . . .

وأعدت سؤالها مرة ، واثنتين وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجب !

ولم يبق لها من بعد ذلك إلا أن تتساءل :

- الله أمرَكَ بهذا؟! !

وعندئذ أجاب إبراهيم : نعم .

ولم يزد . . .

قالت هاجر : إذن فالله لا يضيعنا . . . (١)

ورجعت إلى موضعها الأول عند أطلال البيت ، على حين مضى هو في طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيبتة ثنية الوادي فاستقبل البيت العتيق بوجهه ودعا ربه في خشوع :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

واستأنف مسيره راجعاً . . .

وخيم على الفلاة صمتٌ مرهق لم يلبث أن مزقه لثامٌ عظمي ، وصباح رضيع جائع جف النبع الذي يغذوه ويرويه .

(١) مستخلص من (التوراة) و (تاريخ مكة) للأزرقي . أما القرآن الكريم فلاي يتعلق بتفصيل القصة ، تركيزاً

على جوهر الموقف ومناط الاعتبار .

لقد نفذ الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفذ ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فكرته أمه وانطلقت تبحث له عن قطرة ماء . . .

وحملتْها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه لتشرف من عل على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة ، فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهولت حتى أتت « المروة » فعرجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . . وظلت هكذا تهول من هنا إلى هناك ، ساعة بين الصفا والمروة . مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهاككت على الصخور منهوكة القوى لا تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب .

وإذ تنهاى إليها أنينه ، وغطت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع فقد كان سماع حشرجته وهو يحتضر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

ووجمت السماء حيناً وهى تظل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللفهة عليه مثل الجنون ! وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين ، وبدا كأن شبح الموت يلقي على الوادى ظلاله الكئيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لينتزع منها الحففة الأخيرة من الحياة !

اكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فرحفت إلى حيث هداها الله ، وثم . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبت عليه تعرف منه ، حتى إذا ردت إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فألقمتها طفلها المشرف على الهلاك .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة بنيه وأحفاده . واستجاب الله لدعاء إبراهيم فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى الزرع ، وإذا النبع - بئر زمزم - يجذب القوافل فى آثار الرعاة ، فتغدو « مكة » على مر السنين المركز الرئيسى للتجارة فى شبه الجزيرة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبله أنظار العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ،

ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا بالبيت ويسعوا مهرولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهرولة من زمن موغل في القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .
وهذه هي بئر زمزم ، ماتزال في مكانها قريباً من قبر هاجر ، يتزاحم عليها الحجيج ليلظفروا من نبعها بجمرة مباركة ، كتلك التي رَدَّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحتضر !

* * *

ياله من تاريخ ! ..

إن جهاد أم في سبيل ولیدها ، قد تقبلته السماء عبادةً وقرى ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمم ، سِفْراً يتلى في « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء إبراهيم آية منزلة في « القرآن الكريم » . . .

وكان مسعى هاجر وهولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، عزيزاً على الإسلام ، كما كان عزيزاً على الأجيال من قبله ، فدخل في الشريعة الإسلامية شعيرة من شعائر الله في الحج والعمرة .

وظلت قصتها ملء التاريخ الديني ، على مر الزمان .

وما كانت « هاجر » سوى أمة طريفة مضطهدة ، نُبذت مع ولیدها بالعراء في الفلاة الموحشة ، بوادٍ غير ذي زرع .

لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقرباناً ! !

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

obeikandi.com

آمنة

« إلى التي عجز الرق عن استعباد قلبها ووأد
إنسانيتها ، وإقناعها بأن لاحقاً لها في معاناة
عواطف البشر ، تحيةً ، ورتاءً . . . » .

بلغنا في رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين في أقصى الشرق ، وبدأ لي أن أزور
بعض العرييات الأصيلات ، المحجيات وراء أسوار منيعة من الأعراف والتقاليد .
فصحبتني صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .
وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يُفضى
إلى فناء داخلي ، تُفتَح عليه قاعةُ الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .
والفينا في استقبالنا شابةً مليحة سماء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق
السجاد العجمي . فهضت لتحتينا ، ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل
ابتسامة نجيحة متعبة .

قالت صاحبتني تقدمها إليّ : امرأة السيد .

ثم التفتت إليها قائلة :

– ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتُك آخر مرة ، علبلة

تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يُشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتني :

– كذا ترينيني ياست ؟ حمداً لربي ، أنا بنجر ما بقيت في هذى الدار .

قالت لها السيدة :

– ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهي تقول في انفعال غاضب :

– ما أعرف لي داراً غير هاذلك المكان ، وليس لي في سواه مأرب ، ولا لي عنه

منصرف ، حتى الموت !

وصمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتني تسأل :

- وزوجك يا آمنة ؟ .

قالت الشابة وفي نظراتها مزيجٌ من الرعب والاحتقار :

- ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لي به شأن . طلقني منه سيدي ، له الشكر والله

الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل صاحبتى إن آمنة امرأة السيد ؟
فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟
وفيم تشبها به إن لم تكن ربته ؟ وكيف يُطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوجُ إن لم
يكن السيد ؟

ولحظتُ صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسّمت ضاحكة تقول :

- لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ،
زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوج آمنة من صانع أجير ،
أعجمي غريب . ويبدو أن آمنة لم ترض عن هذا الزواج ، فعادتُ إلى بيت سيدها ،
وهذه هي تقول إنها لا تبغى عنه حوًلاً .
رددت آمنة في إصرار :

- هو ما سمعت : لن أتحوّل عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجوني مرة كرهاً ،
ولن يخرجوني منها ثانية وفيّ نفس ! أعرف أنى جارية ، أمة . مُستعبدة ، ليس لي أن
أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أرغم عليه حياة ،
فليقتلوني إذا شاءوا ، أو . . . !

وبرت حديثها بغتة ، إذ دخلت السيدة ، في تلك اللحظة لتحبي ضيفتها وانكشمت
« آمنة » في مكانها تلتقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، بدون أن تنبس بينت شفة .
ونظرتُ أنا إلى السيدة : عروس في ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ،
تميس في دلال وزهو ، وقد رشقت زهرتين في شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من
« الدانتلا » البيضاء ، وأزينتُ كأنها تنهياً لجلوة العرس !

وجيء لنا بالشاي والفاكهة فأصبنا منها ما اشبهنا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا
النساء .

وعلمتُ أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط
إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة؟ أجابت في مرح :
 - هيينى أشفقتُ ، فإذا بالله كنت صانعة؟ إن الرحلة من المدينة إلى مكة على ظهور
 الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء؟ هل ترينها نزهة طيبة
 لعروس لم تبرح « المدينة » قط؟

فضحكنا جميعاً إلا آمنة! قالت وهى تعث بخيوط لفاعها :
 - أما أنا فما استطعتُ . سألتى سيدى أن أصحبه إلى المدينة يومَ طار إليها ليأتى بالسيدة
 العروس ، فرجوته أن يعفينى من هذه الرحلة ، إذ أنى أخاف ركوبَ الجو . . .
 وصممتُ بعد ذلك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردت « آمنة »
 قائلة وهى تنظر إلى :

- تالله ياستى ما كان بى من خوف ، وإنما ضعفتُ فكرهتُ أن أشهد بعينى جلوة
 العروس .

فسألتها صاحبتى :
 - وأى شىء فى ذلك يا آمنة؟ قسمة ونصيب ، وقدرٌ يجرى عليك وعلى مثيلاتك ،
 أفما كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدارَ سواك؟
 أجابت فى بطء :

- أجل توقعتُ ذلك . . وتوقعتُ أن يلفظنى هذا المكان على غير رغبتى وهواى !
 ويالى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواى ، وإنى لأعلم أن ليس لى ولمثيلاقى حق الرغبة
 والهوى !! ! لكنه الضعف ، فاغفرا لى . .

وقلت وأنا أهدق فى عينها :
 - لا حاجة بك يا آمنة إلى الاستغفار ، فما أئمتِ ولا أذنبتِ . إنى أفهمك يا أخت ،
 كما أفهم نفسى .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :
 - ولم لا يا آمنة؟ أليس لك عواطفُ أنثى وطبيعة بشر؟
 أو لم تلدك أمك مخلوقة سويةً من الفصيلة الآدمية التى تنمى إليها؟
 فتهلل وجهها غبطة ، وامتلأت عيناها بالدموع ، لكن وجومها عاودها بعد قليل
 فتهتت قائلة :

- لست واحسرتاه أعرف أبوى ، غير أنى لا أفئا أئمتلنى وليدةً فى حضن أم ! وكلمة

رأيتُ طفلاً يُسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هائناً بين ذراعيها ، هاجت شجوني وقلت
لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم يشدُّني واقعي فأراني ولا أمَّ لي ! نسج الزمان بيني
وبينها حجياً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شيء .

وأمسكتُ عن الكلام ريثما دخلت السيدة وأخذتُ مكانها بيننا فاستأنفت « آمنة »
حديثها قائلة لي :

– سمعتك ياست تتحدثين عن رغبتك في زيارة أحياء البلدة . لو شئت لأذنت لي في
صحبتك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .
فأدركتُ على الفور أنها تريد أن تنطلق معي خارج الدار ، لتفضي إليَّ بهمومها .
ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتي وصاحبتي ، وخرجتُ مع آمنة .
وتركت لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الحلاء ، على
حافة الصحراء .

وقادتني إلى مكان منزول بين كتيبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية
المأساة :

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة غريرة لاهية ، ضلَّت طريقها
إلى أمها في زحام كبير لا تدري اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالا بعيد . وألقت نفسها
بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلم إلى رجل غريب يمضي بها على راحلته
في سفرة عبر الصحراء ، استغرقت نحو أسبوعين قبل أن تلقى بها في « مدينة الرسول » لتعيش
هناك أعواماً ، وتلقى الدروس الأولى في مدرسة الرق وسوق العبيد !

ولم تكن الدروس في مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن
تلاعب صبية الدار ، وأن تلازمهم كظلمهم أقاموا في البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان
طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولاً ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً في أن تشاركهم
اللعب ، أو يرون فيها غير رقيقة صباً وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع من
بينهم . وتُدفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد والفقار . . .

وعبتاً حاولت أن تبقى مع من حسبتهم قومها ، وعبثاً حاول أن ترباها أن يحملوا أهلهم على
الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل
تمهلت الصبية عند باب الدار تريد أن تملأ عينها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت

الدموع بينها وبين ما تريد . هنالك اندفع فتى من الرفاق يهتف بها ألا تحزن ، فإنه ماض معها إلى حيث يُسار بها !

وأشرقت أساريرها بعد تجمه ، على حين مضى الصبي يستأذن خالته في السفر - وكانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الحالة تسمع حديثه عن رغبته في مرافقة الوليدة حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليها درساً في الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها الفتاة أن من البشر ما يباع ويشترى ، دون أن يكون له من أمره شيء ، أى شيء !

وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذى لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها في ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحميا من مصيرها المحتوم ، فائتني يبكي لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها المبالغت من وطأة الإحساس بالحننة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى حقها في مثل هذا الإحساس .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تلمس أطلال عالمها الماضى ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كثيبة ، موحشة جرداء . . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء ! وتناهى إليها في تلك اللحظة ، صوت حادى القافلة يَعد الإبل الرى والراحة بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكي . لكن نظرة صارمة من وجه المشتري الغريب ، أمسكت الدموع في مقلتها .

وتمتت آنذاك لو أنها ناقة في القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدها في رفق ، ويعنى لها في حنان ، ويعدها الراحة والظل والرى . . .

وهنا لم تقو «أمنة» على المضى في الحديث ، فتركها تبكي . حتى إذا أراحها البكاء استأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب في البداء أياماً وليالي حتى أشرفت على إحدى القرى ، وآن لنا أن نخط الرحال .

وقادني الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمني إلى سيد كهل هناك ، ففارس السيد في وجهي حيناً ، ثم أسلمني بدوره إلى القائمة على شئون الدار .
وبدأت عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذي كان .

بدت لي الدار موحشة خراباً على الرغم من ضجيج النسوة اللواتي كن يملأنها . لأني افتقدت فيها الصبية والأطفال ، وألفيتني أعيش وسط جمع متناكر من النساء !
كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن ماثلات في الزي والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنني ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلده إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها في الحرم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمعٌ من العبيد .
وإلى هذه الأمة الكهله ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للمحل الذي ينتظرني بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفتني بعده أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى من دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !
واستسلمت لحياتي الجديدة ، وقد أرضاني أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدت الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التي أوثرت بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملني السيد بين ذراعيه إلى فراشي وسهر على رعايتي ، يسقيني الدواء ، ويملاً غرفتي بأطيب المأكولات .
وكان إذا سافر ، عاد إليّ بادی اللهفة ، وملّ يديه غالى الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل لينسيني أنى أمة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها في كل ما ذكرت اللحظة الرهيبة التي ودعت فيها صباى الخلى ، ولقنت الدرس الأول عن محنة الرق . .

أجل ، كدت لأنسى . . لكن الزمان لم يسمح لمثلي بذلك .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقني فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصور لطفته عليّ ، حين يثوب من سفره مثقلاً بشوقه ، وهداياه .

وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمة جديدة أنزلها المنزل الأول الذي كان لي ، وادخر لها ما كان يؤثري به من رعاية وتدليل !

وانزويت في الدار مقهورةً أحاول أن أستسلم ، فما كان من حق أن أثور أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال المحظية الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصح صديقتي الأمة العجوز التي حرصت على أن تميمت حسني رحمة بي ، فما يجدي الألم فيها لا يدلنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره !

أجل حاولت ، وسهرت الليالي في كفاح أليم غايته أن أخنق بشرتي وأعطل مشاعري ، حتى أفلحت في أن أهيل فوق قلبي وروحي أكواماً من رماد المداراة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حيناً رأت السيد في غرفتي التي هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم ، عنيف مثير : أصرّ على أن أبقى حيث كنت ، كما فعلت زميلات لي من قبل . وأصررت على أن يبعني ليعفيني من العيش في ذياك الجحيم . قال مهدداً :

- لو ظللت على عنادك ، يبعك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهمت به متوسلة :

- افعلي ! افعلي بالله . . . إن العيشة الجافية الغليظة الحشنة في مضارب البدو ، أجمل في عيني من البقاء في هذه الدار الرحبة ، رافلة في حلال من حرير !

فاشترط لكي يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديدة ، ريثما يختار لي من يشتريني ويدفع الثمن .

° ° °

وجاء المشتري ، وكان شاباً مهذباً من رجال الحكومة ، مرّ بنا في رحلة له إلى نجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة أهون من سابقها ، ولذلك عجبت حين شعرت

بشجن عميق يملأ نفسي ، لما قبلتُ يدَ سيدي للمرة الأخيرة ، وحييتُ صديقتي الأمة العجوز ، ورفيقاتي اللواتي أحطنَ بي مودعاتٍ داعيات .
 ولم أطق أن أطبل النظر إلى غرفتي التي تلقنتني صبيةً غريرة ، وأخرجتني إلى الدنيا بعد ست سنين ، شابة قد شربت الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت بنار المهجر والغيرة والقهر .

وذكرتني رحلتى إلى « نجد » برحلتى الأولى من المدينة ، فلبثت أيام السفر صامته حزينة ، وأشهد أن سيدي الجديد كان رفيقاً بي طوال الطريق ، لم يضق بوجومي وانقباضى ، بل تركنى أجتزأ حزائى فى هدوء !

حتى حططنا الرحال فى « الأحساء » فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سوى .
 واتخذنى سيدي صاحبةً له ، وزوجة . وربة بيت . ففتتح له قلبي المغلق ، وذقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرت حلالة هذا الرق الجديد ، فانيةً فى السيد الحبيب ، وامتد بي هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين . . .

ثم كانت اليقظة الفاجعة !
 أنكر الناس على رُجلى أن يقنع بأمةٍ عقيم ، وزينوا له أن يأنى بأخرى قد تُنتب البذرة التى عجز كيانى المجدب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدي وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له البذرة المشتهة ، ولم يهن عليه أن يبيعى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير .

وحاولتُ هذه المرة أيضاً أن أستسلم لِقَدْرِى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبهاً بالدار التى أظلتنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأب والأخ والزوج والحبيب !

قال لى سيدي : صبراً يا آمنة . فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام . لكن الأيام مرّت والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق ، واشمئزأً ومقتاً . هربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدي يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غلب الصبرُ ونفذ الاحتمال ، فأبيتُ على الزوج الكريه أن يمسنى . ولما حاول أن يُخضعنى بالقوة ، عدوتُ هاربةً فى جوف الليل ، ولذت بدارى الأولى ضارعةً إلى السيدة

أن تدعني أعيش لها أمةً خادمة منبوذة ، أو فلتأمر السيد بانتزاع روعي من جسدي إذا شاءتُ ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .
واستجابوا لي ، فكان الطلاق والخلاص . وتُركتُ حيثُ أريد ، مكتفيةً بأن أسمع صوت سيدي ، وأرى وجهه ولومن بعيد . . .
وذاك حسبي من دنياي . .

* * *

قلت لآمنة ونحن عائدتان إلى الدار :
- ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . . .
فلم تدعني أكمل العبارة ، بل قاطعتني في مرارة :
- وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أي مكان لي على هذه الأرض إذا لفظتني الدار التي كانت لي يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعي بحياتي كلها ، وقلبي مصفدٌ بأغلال رقه وهواه ؟
ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكببتُ على يدي تقبلها وهي تهمس :
- شكراً ياسني ، ألف شكر ! كنت كريمة إذ رأيت فينا معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وحقن عواطفها وإقناعها بأن لاحق لها في الحس أو التألم ، أو الحب ، أو البغض .
وغابت « آمنة » عن عيني ، فلم أرها حتى هممت بمغادرة الدار ، وإذ ذلك لمحتها نخطو نحونا شاحبة متداعيةً ، ثم تقف بباب العربة لتقول :
- في أمان الله . . .

الخبر : جزيرة العرب ١٠/٢/١٩٥١ .